

تعقيباً على ورقة عصام نعمان المعنونة: نحو استنهاض الأمة في سياق عروبي إسلامي^(*)

علاء الدين الأعرجي

محام وباحث عراقي مقيم في نيويورك.

تمثل هذه المقالة ملاحظات مختارة على ما ورد في ورقة د. عصام نعمان حول مشروع استنهاض الأمة في سياق عروبي إسلامي. ونظراً إلى أنني أشارك الكاتب الرأي في معظم النقاط المطروحة في ورقته فسأكتفي هنا بالتعليق على بعض النقاط التي تستوجب التعليق، بحسب تقديري المتواضع، مع إقراري بوجود نقاط أخرى مهمة تستوجب التعليق والنقد أيضاً لم أفها حقها.

أولاً: في مقولة إن «الناس كسروا في قلوبهم وممارساتهم حاجز الخوف. طردوا من نفوسهم هيبة السلطة وتحرروا من رهبتها. [...] خرج مارء الشعب من القمقم ولن يعود إليه أبداً»

إنه إنجاز عظيم حقاً أن يسقط حاجز الخوف من قلوب الناس؛ فالشعب العربي سيطل بعد اليوم واعياً وراصداً سلوك المسؤولين لمحاسبتهم، ما لم يحدث انقلاب معاكس للثورة. وأرى أن صعود الإسلاميين إلى السلطة، وبخاصة في مصر وتونس والمغرب سيضع أعمالهم تحت المجهر والمحاسبة دائماً، الأمر الذي يؤثر إيجاباً في المسار التاريخي الذي فتحه الثوار الشباب للمجتمع العربي، والذي سيغيّر مصير الأمة إذا ما نجح واستمر.

لكن في المقابل، ثمة سيناريو آخر قد يحدث بسبب مؤامرات «الآخر» لبثّ الفُرقة بين فئات المجتمع العربي (القومية والدينية والمذهبية) لتأجيج حروب أهلية وتقسيم البلدان العربية كما حصل في السودان أو في العراق، وهو تقسيم بدأنا نرى بعض علاماته في سورية وربما في ليبيا أيضاً.

صحيح أن مارء الشعب خرج من القمقم ولن يعود إليه، وميزة خروجه هذا أنه كان بلا

(*) هذه الدراسة هي مناقشة في ورقة د. عصام نعمان المنشورة والمعنونة، «نحو استنهاض الأمة في سياق عروبي إسلامي»، المستقبل العربي، السنة ٣٥، العدد ٤٠٢ (آب/أغسطس ٢٠١٢)، ص ١٩٢ - ١٩٧.

قيادة. لكن افتقاد القيادة هذا ما لبث أن تحول إلى خاصية سلبية، بعد نجاح الثورة المصرية مثلاً، كون هذا الأمر ساعد على إمساك جماعات أخرى منظمة في البلاد بزمام المبادرة، على الرغم من عدم مساهمتها في إشعال الثورة، فركبت هذه الجماعات الموجة ونجحت في الحصول على حصة الأسد من ثمار الثورة.

ثانياً: في مقولة إنه «مخاض طويل يعتمل في القلوب والعقول، ويتصل بكل مناحي الحياة وقضاياها ومفرداتها، ويتفاعل مع المخاض الأكبر الذي يلف العالم برمته، وينبئ بأن المسكونة تعيش مرحلة تحول وانتقال من نظام كوني إلى آخر»

تُظهر هذه المقولة أهمية الثورة وشموليتها، لأنها ترتبط «بجميع مناحي الحياة»، لا على الصعيد العربي فحسب بل على الصعيد العالمي أيضاً. لكن الربط بين المخاض العربي والمخاض العالمي، يثير مسألة خطيرة تتعلق بتاريخ الغرب الاستعماري في المنطقة واستنابات دولة إسرائيل ودعمها على حساب مصير الأمة العربية بكامله.

ظل الشرق الأوسط مركزاً للعالم على مدى عشرة آلاف سنة؛ أي منذ عرف هذا الشرق الثورة الزراعية التي ما لبثت أن انتشرت في مختلف بقاع الأرض على نحو غير وجه العالم، وأدى إلى ظهور الحضارات العالمية الأولى فيه^(١)، وظهور الأديان التوحيدية الثلاثة، ولا سيما انبعثت ثورة الإسلام التي أسفرت عن الحضارة العربية الإسلامية، كأعظم حضارة عُرفت في القرون الوسطى، جَبَّتْ ما قبلها، وغذَّتْ ما بعدها، فنهلت منها بذرة النهضة الأوروبية الحديثة بنهم^(٢). لذلك من المتوقع لهذه الثورة أن «تغير وجه المسكونة» لعدة أسباب، منها:

١ - مع تغيير طبيعة الحكومات العربية، التي باتت منتخبة ومسؤولة أمام البرلمانات ومجالس الشعب، بات لا بد أن تتغير قواعد اللعبة مع العرب. فبدلاً من التعامل مع زعماء مُسَوَّخ، كانوا ينفذون أوامر أسيادهم في الغرب بلا نقاش أحياناً، أصبح على هذا الغرب أن يتعامل مع زعماء منتخبين من جانب الشعوب ومسؤولين أمامها.

٢ - كون هذه الثورة تختلف عن بقية الثورات العالمية، إذ نجحت في إسقاط أشرس الأنظمة الاستبدادية المدعومة والمحمية من أكبر الدول الغربية وإسرائيل.

٣ - وكونها ثورة ألهمت شعوب العالم المضطهدة، في كثير من البلدان، الاحتجاج والمطالبة بحقوقها. بل تحركت في إثرها جماهير الشعب الأمريكي، فخرجت إلى شوارع نيويورك، تنادي «احتلوا وول ستريت». كما انتشرت الاحتجاجات والتظاهرات المستلهمة منها في كثير من بلدان العالم. ومهما تكن النتائج النهائية للثورة العربية، فهي ستظل مصدر إلهام لجميع تلك الشعوب، وفاتحة لتغيير النظام العالمي القائم على الاستغلال

(١) Samuel N. Kramer, *History Begins at Sumer* (Garden City, NY: Doubleday, 1959).

انظر أيضاً: هنري فرانكفورت، *فجر الحضارة في الشرق الأوسط* (بيروت: دار الحياة، ١٩٥٩).

(٢) عبد الرحمن بدوي، *دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي* (بيروت: دار القلم؛ الكويت: وكالة

المطبوعات، ١٩٧٩).

والبطش، وهو أمر سيمثل منعطفاً تاريخياً كبيراً في تاريخ البشرية.

ثالثاً: في مقولة إن من تحديات استنهاض الأمة هو «ثورة إلكترونية في عالم الاتصال والتواصل والموصلات والمعلوماتية»

أرى أن الثورة العلمية والتقانية، بما فيها الإلكترونية والمعلوماتية هذه، التي يشهدها العالم، قد تكون سلاحاً ذا حدين بالنسبة إلى الأمة العربية، إذ لا تقتصر هذه الثورة على التحدي الإيجابي بل تحمل تحدياً سلبياً أيضاً؛ فالعرب أصبحوا مستهلكين للتقانة الحديثة غير منتجين لها، ولا مشاركين فيها، الأمر الذي يزيد من اتساع الفجوة الحضارية بينهم وبين الغرب، ويضاعف من وسائل سيطرة الأقوى علمياً وتقنياً على الأضعف، بصورة أو بأخرى. حتى إن إسرائيل، باتت تتمتع بتفوق معرفي وصناعي وتقني هائل على جميع البلدان العربية.

رابعاً: في مقولة إن «هزيمة العرب أمام الغرب الأطلسي وربيبه الاستعمار الصهيوني [...] خضوع العرب، أكثر من ألف سنة، إلى حكام أجنبية [...] فقد كان من الطبيعي للاحتقان المترع بالضغط المتعاضمة أن ينفجر [أولاً]، وأن تكون القوى الشبابية العربية [ثانياً] هي الصاعق المفجر للأوضاع الفاسدة المتهرئة، وأن تكون هي أيضاً خميرة الثورة وصانعتها في آن»

تدفعنا هذه المقولة إلى طرح بعض التساؤلات: هل كان هذا الانفجار طبيعياً حقاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يتوقعه أحد من العرب والأجانب؟ ولا سيما في ذاك التوقيت وفي تلك الظروف التي أصبحت فيه جميع خيوط اللعبة في يد السلطات الحاكمة المدعومة من جانب أقوى دولة في العالم؟

وهل كان من المتوقع حقاً أن تضطلع «القوى الشبابية» الليبرالية بدور «الصاعق المفجر» للأوضاع الفاسدة المتهرئة، وأن تكون هي أيضاً خميرة الثورة وصانعتها في آن؟ ألم تكن القوى الإسلامية المنظمة والمتغلغلة في صفوف الشعوب العربية، ولا سيما بعد هزيمة عام ١٩٦٧، هي المرشحة أكثر للقيام بهذا الدور؟

خامساً: في مقولة إن «الذات العربية [...] عاشت وتعيش ظاهرة تاريخية فريدة هي خضوع العرب، أكثر من ألف سنة، إلى حكام أجنبية»

صحيح أن العرب خضعوا قرابة ألف سنة لحكم الآخر، ولكني أرى أن الحكم العربي الإسلامي بعد الخلافة الراشدة، أو حتى أثناء الحكم الوطني الثوري الحديث، بعد طرد الاستعمار، لم يكن أقل استبداداً وقهراً. فضلاً عن أن الحكم الوطني الحديث فشل فشلاً ذريعاً في إنقاذ هذه الأمة من هذا الغم، على مختلف المستويات.

وأرى أن جميع القيادات العربية التقليدية (الملكية أو الخليجية العشائرية)، أو حتى الحديثة، هي قيادات غير شرعية، نظراً إلى أنها وصلت إلى سدة الحكم عن طريق القوة (الانقلاب)، أو بالوراثة عن السلف، الذي وصل بدوره إلى السلطة بالقوة.

فالمسألة إذاً، لا تتعلق باستبداد الحكام الأجانب فقط، بل تتعلق بالاستبداد/الخضوع،

كـ «مؤسسة» تبلورت وتخلّقت وتمركزت، فأصبحت تحتل الجزء الأكبر من «العقل المجتمعي العربي» نفسه. أي أنها ألّفت جزءاً كبيراً من بنية ذلك العقل الأساسية، التي تفرض على الفرد الخضوع والصبر، إذ «إن الله مع الصابرين»، وعلى الحاكم الاستبداد كما يشاء. ولا سيّما إذا شُرّعت هذه المؤسسة، لا من جانب الحكّام أنفسهم وحسب، بل من جانب المشرّعين أيضاً، بمن فيهم الفقهاء ورجال الدين.

سادساً في مقولة إن «أولى المهام استنهاض الأمة، وليس استنهاض التيار القومي العربي أو التيار الإسلامي أو أي تيار آخر. فالتحديات التي تواجهنا تمسّ الأمة جمعاء بكل أفرادها وجماعاتها ومؤسساتها وأحزابها وفعاليات حياتها»

كانت قضية استنهاض الأمة ولا تزال الشغل الشاغل لعدد كبير من الكتّاب وبعض السياسيين العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر.

وفي هذا السياق اقترح هنا ثلاث فرضيات/نظريات، اثنتان منها تحاولان تشخيص الداء، هما: نظرية «العقل المجتمعي» (Societal Mind)^(٣)؛ ونظرية «بداوة العرب» الناتجة من عدم مرورهم بمرحلة الزراعة، على نحو كافٍ لمحو القيم البدوية، التي لا تزال تنخر في المجتمعات العربية، وتؤثر سلباً في جميع مناحي الحياة العامة والخاصة.

أما الفرضية/النظرية الثالثة، التي تحاول وصف الدواء، فهي «نظرية العقل الفاعل والعقل المنفعل» التي تنطبق، كأمرها نظرية «العقل المجتمعي»، على جميع المجتمعات في كل زمان ومكان، والتي نبجّثها من حيث مدى قدرتها على تحويل عقل الإنسان العربي المنفعل بـ «العقل المجتمعي»، أي الخاضع له، إلى عقل فاعل، يستطيع أن يعيد النظر بالأعراف والقيم والأفكار والمسلّمات... التي يفرضها العقل المجتمعي على أفراد المجتمع بوجه عام.

سابعاً: في مقولة «اعتماد» العروبة» هوية جامعة بدلاً من «القومية العربية»

أقترح أن يُعرض هذا الاقتراح على المؤتمر القومي العربي لمناقشته؛ فهذه النظرية تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث؛ بل ربما تستحق تنظيم ندوة خاصة في هذا الشأن يقوم «مركز دراسات الوحدة العربية» بها ضمن برنامجه العلمي.

وفي هذا السياق، الذي يهدف إلى تعديل مسار التيار القومي، أود أن أشير إلى أن التيار القومي العربي أصبح موضع نقد شديد، بل متهماً من جهات متعددة، بما فيها العروبية والليبرالية، بضعف مواقفه ومجاملتها بعض الأنظمة الاستبدادية العربية، لمجرد أنها تنتسب إلى التيار القومي العربي، على حساب الديمقراطية وحقوق الإنسان.

(٣) تعني نظرية «العقل المجتمعي» أن لكل مجتمع عقلاً تخضع له الأغلبية الساحقة من أعضائه، بلا وعي، أي يخضعون له بعقلهم المنفعل به. انظر: علاء الدين الأعرجي، «أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل: بحث في تشريح العقل المجتمعي العربي الممزق بين سطوة الماضي وضرورات الحاضر، تقديم جمال الغيطاني، ط ٣ منقحة ومزودة (القاهرة: دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ٢٠٠٩)، ص ٨٩ وما بعدها.

ثامناً: في مقولة إن «الثقافة السائدة في الاجتماع السياسي العربي هي ثقافة إسلامية أو إسلاموية تستجيب لمفردات الخطاب «الإخواني» وأمثاله»

أوافق الرأي القائل بالتعامل بإيجابية مع صعود نجم الإسلاميين ووصولهم إلى السلطة في مصر وتونس؛ فنجاح الإسلاميين في الوصول إلى الحكم يُعدّ أمراً طبيعياً، لأن العقل المجتمعي العربي حافل بالعقيدة الدينية المحافظة لدى الأغلبية الساحقة من أفراده. ونتوقع من هذا العقل المجتمعي الحاكم أن يقبل ما تعتقد به العقول المجتمعية الأخرى الموجودة معه في المجتمع ويتساوى أفرادها معه أيضاً في نفس الحقوق والواجبات، وهذا هو جوهر الديمقراطية. ويجب التعامل بإيجابية مع الإخوان المسلمين إذا اقتنعوا بهذا الأمر؛ بل يمكن دعمهم أيضاً، ولا سيما في مواجهة الفرق التكفيرية والنافية للآخر.

تاسعاً: في مقولة إن «أكثر ما يساعد في توليف مشروع استنهاض الأمة [لعلها] توافق قوى وفصائل عدة داخل التيارين [العروبي والإسلامي] على الأهداف الستة للمشروع النهضوي الحضاري العربي، وهي: الوحدة، الاستقلال الوطني والقومي، الديمقراطية، التنمية المستقلة، العدالة الاجتماعية، والتجدد الحضاري»

لكن ذلك يحتاج إلى وضع آليات معيّنة لتحقيق هذا الاتفاق، الذي لا يزال مفقوداً بين التيار العربي الإسلامي والتيار العروبي، ولا سيما بعد الربيع العربي، إذ تغيرت مراكز القوى لكل من الطرفين، على نحو مؤثر في العلاقات بينهما.

من جهة أخرى، ظهر تيار آخر على خشبة مسرح الربيع العربي، أسمّيه «التيار الليبرالي الوطني الشبابي الحر». وهو التيار الذي قاد الثورة، وحقق إنجازاً تاريخياً جباراً. لكن هذا التيار، الذي تراجع بعد إنجاز الثورة إلى الصفوف الخلفية، لا يزال حاضراً بكل قوة، من خلال المبادئ السامية التي أرساها وأهمها الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية. لذلك يجب على التيار القومي أو العروبي أن يضع خطة واضحة للتعامل معه.

أرى أن المشروع النهضوي العربي بأهدافه الستة يمثل غاية سامية يتطلع إليها معظم العرب المؤمنين بوحدة هذا الوطن من المحيط إلى الخليج، التي تتجلى في مشتركاته الأساسية: اللغة والثقافة والتاريخ/ التراث، والدين كرابطة روحية للأغلبية الساحقة، وكحضارة وثقافة للكثير من غير المسلمين. فضلاً عن اشتراكهم في مظاهر التخلف الحضاري، وفي الإشكاليات والأمراض المجتمعية المتوطنة المزمّنة، المتخلفة خاصة من الفترة المظلمة. ومع ذلك فهم يشتركون في وحدة الآمال والتطلعات، والعدو المشترك الذي يسعى إلى محونا من الوجود، عن طريق تمزيقنا، كخطوة أولى للإجهاد علينا.

عاشراً: في مقولة إن «استنهاض الأمة [يكمن في] أن تجتمع المؤتمرات الثلاثة [المؤتمر القومي العربي والمؤتمر القومي الإسلامي ومؤتمر الأحزاب العربية] [...] على تشكيل الكتلة التاريخية المطلوبة لتحقيق الأهداف الستة للمشروع النهضوي الحضاري العربي»

هذا اقتراح يستوجب الدعم، لكن يمكن أن أضيف إليه مشروعاً مكملاً آخر، كنت قد

طرحته على المؤتمر القومي العربي منذ عام ١٩٩٨، ووافق عليه بعد إحدى عشرة سنة، بعد جهود مضيئة ومتواصلة خلال أكثر من عقد؛ وهو اقتراح إنشاء «جامعة شعوب عربية»^(٤) إلى جانب «جامعة الدول العربية» الكسيحة، التي تمثل أنظمة عربية ضعيفة بل تابعة، على أن تتألف هذه الجامعة الشعبية من المنظمات الأهلية غير الحكومية المستقلة فعلاً عن الحكومات، منها اتحادات المرأة والعمال والفلاحين والمحامين والمهندسين والأطباء والكتاب والعلماء والأحزاب والطلاب وغيرها. ومذ طرح هذا المشروع كانت أهم عقبة تواجهه هي صعوبة إيجاد منظمات أهلية مستقلة تماماً عن أنظمة الحكم. لأن معظم تلك المنظمات الرئيسية كانت قد اختُرقت من جانب بعض الأنظمة علناً أو خفية. فضلاً عن أن بعض الحكومات في بلدان عربية مهمة، لا تجيز تأسيس منظمات أهلية مستقلة عن الحكومة أصلاً. أما بعد الربيع العربي فأعتقد أن هذه العقبة قد زالت، كلاً أو جزءاً، وهذا مرهون بتطورات الربيع العربي والثورات العربية التي لا تزال تمر في حالة مخاض خطير. وأعتقد أن اقتراح د. عصام نعمان إنشاء كتلة تاريخية من المنظمات الثلاث، يمكن أن يتكيف ويتوسع، فتؤلف هذه المنظمات الثلاث البذرة الأساسية لمشروع «الجامعة الشعبية العربية» المقترحة.

فضلاً عن ذلك، وفي مقابل اقتراح د. نعمان تأليف «كتلة تاريخية» من المنظمات الثلاث المذكورة أعلاه، لتحقيق المشروع النهضوي العربي، أود أن اقترح تأليف «كتلة تاريخية» موازية تتكون من المثقفين والمفكرين والأكاديميين العرب داخل الوطن العربي وخارجه، لتحقيق ثورة فكرية / علمية ناعمة، بموازة الثورة الساخنة^(٥)، تهدف إلى إرساء دعائم نهضة حضارية عربية تحقق البند السادس من المشروع النهضوي العربي، ألا وهو التجدد الحضاري.

نُرى هل يتمكن المثقفون العرب، وهم كثر، من الاضطلاع بثورة ثقافية ناعمة توازي الثورات العربية الشعبية الساخنة، وتسند لها فكراً وعلمياً؟ □

(٤) علاء الدين الأعرجي، «بعد الربيع العربي: الجامعة الشعبية العربية»، أكثر إلحاحاً وأقل صعوبة!، **القدس العربي**، ٧ - ٨ / ٩ / ٢٠١٢. هذه آخر مقالة كتبتها عن هذا الموضوع، وسبقته عشرات المقالات والذكرات عن الموضوع نفسه.

(٥) علاء الدين الأعرجي، «توازيًا مع الثورات الشعبية لتتفجر الثورة الفكرية والثقافية الناعمة»، < <http://www.arabicfacesusa.com/arabicfaces/?p=345> > .